بين آدم وحواء

شروق العقل

للدكتور زكي مبارك

أفاق آدم من غفوته عند قدوم حواء ، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتقبيل ، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكيره بشجرة التين ، فغام قلبه بعد صفاء ، وعاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء .

— آدم ، مالي أراك شارد اللب ؟

— من الفرح بقدومك بعد طول الغياب !

— أنظر ، أنظر ، ألا ترى أني صرت أنضر من أزهار التفاح ؟

— وأحلى من أثمار التفاح !

— إذاً ما هذا الخمود الذي يغالب قُواك ؟

— ما أنا بغافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان ، الجسم البديع الذي أضلني وهداني ، ولكني تذكرت « صلاة الشكر » وهي صلاة لا تتم بلا اعتكاف ، فإن رأيت أن تتركيني وحدي لحظة أو لحظتين ...

— انتهابُ الجمال هو في ذاته شكران لواهب الجمال

— أبغضُ ما تكون المرأة حين تتفلسف ، فاتركيني لصلاتي ، وإلا مزجت الكوثر بدمك النجيع . إنصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي

« وخافت حواء عواقب هذه الغضبة فولت هاربة لا تُلوي على شيء وتركت آدم للصلاة ، وهي ترجو أن تكون صلاته أقصر من الأمل في سيادة العدل »

فماذا وقع بعد انصراف حواء ؟

هل صلّى آدم ؟ وكيف تصح له صلاة وقلبُه يفور ، وعقلُه يثور ؟

أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء ، فقد كانا غايةً في الطاعة والخضوع ، فما الذي جدّ حتى أصبحا غايةً في التمرد والعصيان ؟

أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس ؟

ولكن إبليس كان يوسوس منذ أزمان ولم يصل إلى شيء ، فكيف وصل بعد اليأس ؟

هنا أدرك آدم أن السر يرجع إلى النموّ الملحوظ في جسده وجسد حواء ، وأيقن أن اضطرام الأجسام يصنع ما تعجز عنه ألوف الأبالسة ... وهل تنجح النزوات الخارجية إن لم تصادف قبولاً من الأهواء الداخلية ؟

وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل الطير والحيوان ؛ فقد كان يشاهد أنها لينة رفيقة في أول عهدها بالوجود ، ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج والاستحصاد !

وإذن ؟ وإذن يكون تطوّر الفاعلية الجسدية مصدر التطور في الفاعلية العقلية !

ثم ؟

ثم يكون في كل تطور جديدٌ إبليس جديد

وعلى هذا يكون لحواء في طغيانها عذرٌ مقبول

وما ذنبُ حواء ؟ ما ذنبُها وقد استحالت إلى دوافع ونوازع وأهواء ؟

نظرتْ مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال وجهها الجميل وقد استدار في هالة من السحر والفتون ، فقدّرت أنْ سيكون لها تاريخ ، وعجبتْ من أن يتمنى آدم عن حسنها الفتّان ، كأنها تجهل أن آدم صار ألعوبة في زمامها المخبول

وخلاصةُ ما قرأت في كتاب شيث أن آدم لا يقيم وزناً لنزغات إبليس ، وإنما يرى أن الجسد هو الأصل ، وأن ألفافه مكوّنة من أبالسة ، وأن ثمر الشجرة المحرّمة قد يزيده فورةً إلى فورة ، وجموحاً إلى جموح

وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة العطب والفساد ؟

لقد تأملها مرة ومرتين ومرات ، فعرف أنها معرّضة لأخطر الجراثيم ، وأدرك أن سمها قد يؤثّر ما في الأجسام من السم المكنون فتستشري وتهتاج[1]

وإذا كان آدم عجز عن رياضة حواء وهي صحيحة ، فكيف يروضها وهي مريضة ؟

---

(١) تحرير هذه الفكرة أن الانحراف في الطبائع هو الأصل في انحراف الأخلاق

خطرت لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر فى تمرد حواء ... لقد كانت طفلةً وديعة ، فكيف صارت امرأةً خبيثة ؟ تطوُّر الجسد صنع بها ما صنع ، فأمست وهى أخطر من الحية النضناض ، ولن يكون إبليس بأمكر من حواء ، بعد أن تبلغ مبلغ النساء

وكان آدم يعرف أنه يحمل الجانب الأخطر من المسئولية ؛ فهو السبب الأصيل فى تمرّد حواء ، وبفضل شبابه وصياله ذاقت أفاويق الضلال

والتى ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينيها رجل ، شبيهٌ بالذى ينتظر أن تهدأ النار وقد أُقيمتْ أكداس الحلفاء ... لقد كان آدم يطرد حواء ثم تعود إليه لتأنس بقربه الوجيع ، كما ترجع الفَراشة إلى أقباس اللهيب

المرأة تدرك ما فى الرجل من المعانى ، ولو كان من الخاملين ، فكيف تصدّ عنه وهو من الأنبياء ؟

كانت حواء سمعت أن الله لم يخلق آدم إلا بعد أن دار بينه وبين الملائكة حوار طريف ، فكيف يفوتها أن تنتفع بشهرته ، وهى تعرف أن الشهرة مغنمٌ عظيمٌ ، وإن اعتمدت على أضاليل وأباطيل ؟

وهل تقوم الشهرة بلا أصل ؟

إن آدم رجل ، والرجولة من أعظم الأرزاق ، فا زهدها فيه وهو من أمثلة العزة والجبروت ؟ وهل تنسى أنه صرعها فوق شط الكوثر ألوف المرات ؟

القوة هى سحر آدم ، والضعف هو سر حواء ، والوجود يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجع إلى أساسين هما القوة والضعف ؛ والعشق العارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين فى العرض والطول ، والدمامة والجمال ، والقسوة واللين

ومع هذا كان آدم هو البادئ بإعلان شوقه إلى حواء ، وكانت حواء تنكر شوقها إليه . وتفسير ذلك سهل : فأسرع الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأقوياء

ويزعم شيث بن عرباٰنوس أن آدم قال وهو يحاور تلك الهموب :

أما والله لو تجدين وجدى   لطِرتِ إلىَّ خالعة العذار(١)

(١) كذلك ورد هذا البيت فى كتاب شيث ، ورواية الأغانى تخالف هذه الرواية فى الكلمة الأولى من الشطر الثانى

وقد فات آدم أن حواء ضعيفة ، والضعف يتسلح بالرياء

والقول الفصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا تحتاج إلى برهان ، وهى صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورها عن الأرواح ، لأن الجسد أداة الروح ، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق

ثم ماذا ؟ ثم التفت آدم إلى وحى النبوة فقال :

« لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون من الأنبياء ، فقد فهمت أول الأمر أن النبوّة لا تصح إلا لمن يقف موقف الراعى من الرعية ، وليس فى الجنة جنود وأتباع يحتاجون إلى من ينظر فى شؤونهم بعين الدّرّ الحصيف ... ثم عرفت أن الله جعلنى نبياً لحكمة سامية : فحواء شخصٌ فرد ، ولكنها مؤلَّفة من شخوص يعدّون بالألوف ، بفضل ما يصطرع فى جسدها وروحها ، وقلبها وعقلها ، من أشتات النوازع والأحاسيس ... هى شخصٌ فرد ، ولكن أوقاتى تضيق عن الطب لأهواء ذلك الشخص الفرد ، فكيف أصنع لو أضيف إليها أفراد يحملون ما تحمل من أوقار النزق والطيش والجموح ؟ إنها تتعبنى فى الحوار ، وأكاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترمز إلى شىء ، فهذه الكلمة عتاب ، وتلك الكلمة اتهام ، وهذا اللفظ وعد ، وذلك اللفظ إغراء ، وذلك اللفظ تجريح ... ومن عجيب الأمر فى سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين تنطق ، مع أن المفهوم أن نطقها فى أغلب أحواله وعيد مخيف ... أخطر ما تكون حواء حين تصمت ، فعند ذلك أدرك أنها تضمر أشياء ، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير السّموت ... لو أن الله جعلنى نبياً فى أمة كثيرة العدد لخفَّ الخطبُ وهان ، فقد كنت أستطيع الاعتذار بالعجز عن رعاية الألوف من الرجال والنساء ، ولكن الله جعلنى نبيًّا على مخلوق تحار فى رياضته العقول ... من أى طريق أصل إلى اكتناه قلب حواء ؟ وكيف أؤدى الواجب فى تهذيب تلك الشقية ؟ وهل نجحتُ فى التخلق بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك الفَرَس الشَّموس ؟ الله يعلم أنى لم أقصّر ولم أفرّط ، ولكن ما هذا البلاء الذى أعانيه ؟ واجب النبى أن يهدى الجميع فى حدود ما يطيق ؛ وقد يتلطف الله به حين يعجز عن هداية من يحب ، لأنه يعلم أن الأحباب هم فى الحقيقة أعداء ؛ وهل يعرف مَقاتل المحب غير الحبيب ؟ كان يكفى أن أعجز

عن هداية حواء فأسلمها إلى الشياطين ، ولكن البلاء كل البلاء أن هذه المرأة لا تكتفي بنجاتها من يدى ، وإنما تريد أن تضلني فآكل معها الثمر الممنوع ، وبهذا يصبح الهادى وهو من الضالين ! إن نجحت حواء فى اختيالى واختلابى فسأكون عبرة لمن يأتى بعدى من الأنبياء ... وهل أضمن حفظ مكانتى فى التاريخ ؟ إنْ تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أريدَ بها تصوير انهزام الرجال أمام النساء . وهل يؤذيني أن يقال ذلك ؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتنى حواء ، ومن حق من يجيئون بعدى أن يرتابوا فى حقيقتى التاريخية . فالرجل الذى يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود ... وأنا أعيذ من تصل إليهم هذه الأخبار أن يسيئوا الظن بجدهم المظلوم ، فليس عندى أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء ، ولست أعرف المصير إن عاقبتها بالقتل ، فما لى صديق غير هذا المخلوق ، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردَّى بالعيوب . من أخصب تخيَّر ، وأنا فى الصداقة مُجدب لا مخصب . فهل ألام إذا استجزت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجد غيره حين يضيع ؟ سأقرب الشجرة رعاية لحواء ، وليصنع الله بنا ما يشاء ... وماذا يريد الله ! أيريد أن نشاركه فى السموّ المطلَق ؟ أيريد أن نتنزه كما تنزه عن جميع الشُبهات ؟ أين نحن من الله وهو قوة أزلية لا يعتريها نقص ولا خمود ؟ بأمر الله سأعصى الله فأقرب الشجرة مع حواء . سأعصيه بأمره وإن كان نهانى ، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف من أحلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان »[1]

وانخرط آدم فى البكاء ، فلم يوقظه غير حواء

— آدم ، آدم ، ماذا بك ؟

— حواء ؟

— نعم ، حواء ، هل فرغت من صلاتك ؟

— أى صلاة ؟

— صلاة الشكر ، ألم تحدثنى أنك من أجلها أردت الاعتكاف

— لقد صليت صلاة لا تخطر لك فى بال

— هل صليت كما تصلى الملائكة ؟

— أعظم مما يصلّون

— وكيف ؟

— ناقشتُ الله !

— من ناقشَ الله هَلَك

— قولى هذا لنفسك ، يا حواء !

— أحب أن أعرف كيف تكون المجادلات من ضروب الصلوات ؟

— حين تكون شاهداً على شروق العقل

— لا أفهم ما تريد أن تقول

— أريد أن أقول : إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت والجمود

— ومعنى هذا أنه يجب أن نتكلم ونتحرك فى كل وقت ؟

— إذا أشار العقل

— وما العقل ؟

— أن تسكتى إلى الأبد الأبيد !

— أتريد أن تتمتع بنعمة الكلام وحدك ؟

— لأننى أشقى بنعمة العقل وحدى ، ولأن الله لن يسأل غير « آدم » عن زلق « حواء »

— وما رأيك فى شجرة التين ؟

— المرأة حين تولع بشيء لا تنفك تدور حوله ولو نهاها عنه الأنبياء

— وأنت نبيٌّ يا « آدم » ؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف !

— إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهى ، فهل تسمعين صوت النبيّ المسكين ؟ !

— ومتى نهانى الله عن الشجرة ؟

— كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح : « لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »

— هو نداء موجه إليك

(١) هذه الوثيقة التاريخية تشهد بأن آدم ظل مدة طويلة فى أسر القلق والخوف ، ومنها نعرف أنه كان فى صراع دائم بين عقله وهواه ، وأن حواء لم تفتنه إلا بعد أن بذل فى جهادها فوق ما يطيق

— إليّ وحدي ؟ وكيف ؟

— لأنك رجل !

— وإذن يكون من حقي أن أقرب الشجرة وحدي

— لن تذوق ثمرها إلا من يديّ

— وهل أذوق من يديك غير العلقم والصاب ؟

— إسمع يا آدم ، إسمع : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك . ما هذا التمرد على الله ؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشيء إلا إن غصيت وغويت

— ويقول الله : وعصى آدم ربّه فغوى ؟

— ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك الله بالغمز والتجريح ؟

— إسكتي ، يا حواء !

— لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاء بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل ؛ كأن سلوكي معك رذيلةٌ وضعةٌ وإسفاف . أنت تصور نفسك دائماً بصورة المظلوم وتنسى أنك في أغلب أحوالك من الظالمين

— ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟

— حين تناسيت فضلي عليك ، فأنا أضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة الحق ، وستموت حسيًّا ومعنويًّا يوم أعجز عن إغوائك . فيومئذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالشر القليل

— كفى . كفى !

— لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك

— أمِنَ الفضل أن تزيّني المعصية ؟

— ما زيّنت لك شيئاً غير جميل

— وشجرة التين ؟

— ما يهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الخبز ، لأنك تنقل قلبك من مكان إلى مكان ، ولأطمئن إلى أنك بعافية تجعلك في طليعة الفحول ، فما ينجو من كيد المرأة إلا العِنّين أو المجبوب

— أنتِ يا حواء شقية !

— وأنت يا آدم جهول !

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات ، ثم ثاب إلى صحوه فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال ... ولكنه جمع قواه ليصدها عن الغواية بأسلوب لم يفكر فيه من قبل . فهل يصل إلى ما يريد ؟

« الحديث شجون » زكي مبارك

إعــلان

وزارة الزراعة

تقبل العطاءات بإدارة المخازن والمشتريات بالدقي . لغاية ظهر يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٤٢ عن توريد كسب بذرة كتان وكسب سمسم وكسب بذرة قطن للوقود والعليق وزيوت لأقسام الوزارة . ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من الإدارة المذكورة يومياً ما عدا العطلات الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ مليما بخلاف ٢٠ مليما أجرة البريد

٩١٥٣